الجزء الثالث

الردة ضد النظام

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر

الـــردة

راى بويد: «ما الخطب يا ماما؟»

دوروثى بويد: «الدرجة الأولى، ذلك هو الخطب. لقد اعتدت على طعام أفضل. والآن إنها حياة أفضل.

ـ من حوار فى فيلم چيرى ماجواير

يعتبر منتدى داڤوس للاقتصاد العالمى الذى يعقد سنوياً أفضل ما تجده مقياساً للشئون العالمية. ففى فبراير من كل عام يتجمع كبار العولميين فى العالم فى هذا المنتجع الجبلى السويسرى للاحتفاء بالعولمة ومناقشة أمورها. ويحضر هذا الاجتماع كبار رجال الصناعة، والشخصيات السياسية، والاقتصاديون، ورجال التكنولوچيا، والعلماء، وعلماء الاجتماع من كل أركان الدنيا. وفى كل عام، تبرز شخصية، أو شخصيتان، رمزاً للاتجاهات السائدة. ففى عام كانت تلك الشخصية قيصر الاقتصاد فى الصين زهو رونجى، وفى عام آخر كان ياسر عرفات وإسحق رابين وشيمون بيريز، وفى عام ثالث كان الإصلاحيون الروس، وفى عام آخر كان قادة الدول الآسيوية المنكوبة اقتصادياً. وفى عام 1995 كان نجم منتدى داڤوس للاقتصاد العالمى هو جورج سوروس، الرأسمالى والملياردير. وأنا أعلم ذلك لأننى دعيت لحضور مؤتمر صحفى تجمع فيه

ممثلو جميع المنظمات الإعلامية الكبرى فى العالم حول مائدة المؤتمر وطرحوا الأسئلة على سوروس وكأنه رئيس لقوة عظمى. وكان يبدو أنه يعتقد أنه كذلك بالفعل. وقد قام مراسلو وكالات الأنباء والصحف من رويترز، وبلومبرج، وأسوشيتدبرس ـ داو جونز، ***ونيويورك تايمز*** ، ***وواشنطن بوست*** و***التايمز*** اللندنية و***فاينانشيال تايمز*** باعتصار سوروس بالأسئلة إزاء آرائه بشأن المكسيك وروسيا واليابان واتجاهات الاقتصاد العالمى، ثم خرجوا مسرعين من الغرفة لإرسال تقرير بما صرح به إلى الجهات التى يعملون بها عن طريق التليفون. وجاءت أفكاره فى الصفحات الأولى من صحيفة ***إنترناشيونال هيرالد تريبيون*** وكثير من الصحف الأخرى فى اليوم التالى.

شعرت وأنا أرقب هذا المشهد أننى أشهد نقطة تحول هامة. فقد كان سوروس يجسد القطيع الإلكترونى. كان أحد الثيران القائدة للقطيع. بل ربما كان هو الثور القائد. وكان ذلك حوالى الوقت الذى بدأ فيه كثيرون من الناس إدراك أن هذا القطيع الإلكترونى احتل مكان الاتحاد السوفيتى وأصبح القوة العظمى الأخرى فى عالمنا ذى القوتين العظميين. وقبل ذلك بعدة سنوات فقط كان سوروس قد لقن جون ميجور رئيس الوزراء البريطانى درساً اقتصادياً أفقده الصواب. كان ميجور يرى أن قيمة الجنيه الإسترلينى صحيحة. ولكن سوروس لم ير ذلك. وقاد سوروس، فى سبتمبر عام 1992، القطيع فى حملة لإرغام الجنيه الإسترلينى على الهبوط إلى معدله «الصحيح». استهزأ ميجور بسوروس، ثم سخر منه، ثم قاومه، وفى النهاية رفع الراية البيضاء وخفض قيمة الجنيه بنسبة 12 فى المائة. خرج سوروس من هذه المعركة التى استمرت بضعة أشهر بأرباح بلغت مليار دولار. وداعاً، الاتحاد السوفيتى، مرحباً، بالقطيع الإلكترونى.

من المثير للاهتمام، أنه بعد عام من رؤيتى لسوروس أول مرة وهو يمسك بزمام مؤتمره الصحفى فى داڤوس، ذهبت إلى داڤوس، متلهفاً لمعرفة نجم المنتدى لعام 1996. كنت واقفاً عند أحد أجهزة الكمبيوتر الطرفية فى الصالة الرئيسية فى محاولة

لاستلام بريدى الإلكترونى، ولاحظت أن جورج سوروس يمر بجانبى. ولكن ما أدهشنى هو أنه فى هذه السنة لم يكن أحد يعره اهتماماً على الإطلاق. وفى الواقع أنه بدا لى وحيداً تماماً. أى تحول حدث فى عام واحد. لا أعتقد أنه كان يستطيع شراء مؤتمر صحفى لنفسه فى ذلك العام. لماذا ؟ من كان نجم داڤوس لعام 1996 ؟ إنه ليس سوى جينادى أ . زيوجانوف، زعيم الحزب الشيوعى السوڤيتى!

فمنتدى داڤوس مؤتمر رأسمالى مطلق. فكيف يتسنى لذلك الديناصور القادم من حقبة المتنزه الچوراسى للحرب الباردة ـ چينادى زيوجانوڤ ـ أن يكون هو رجل الساعة؟ لأن صفوة رجال الأعمال والسياسة المتجمعين فى داڤوس فى ذلك العام كانوا يدركون، وكثيرون منهم للمرة الأولى، أن تلك الظاهرة القوية التى تسمى العولمة كانت تفرز أيضاً ردة بالقوة نفسها فى بعض الدوائر. ففى ذلك الوقت، كان زيوجانوڤ يبدو وكأنه سوف يهزم بوريس يلتسين حقاً فى معركة الرئاسة الروسية ، ومن ثم فسوف تستولى قُوى الارتداد الرجعية حقاً على السلطة فى دولة كبرى. ولذلك كان جميع المسئولين التنفيذيين فى داڤوس يرغبون فى الحديث إلى زيوجانوڤ ـ «وحش الردة» ـ واكتشاف نواياه بالنسبة للملكية الخاصة، والميزانية الروسية ، وقابلية التحويل بين الروبل والدولار. وقد أجريت لقاءً صحفياً مع زيوجانوڤ فى ذلك الوقت، وتبين لى أنه ليس لديه أى فكرة عما سيفعله. وبدا لى أنه يقضى معظم الوقت مختفياً عن صفوة رجال الأعمال الغربيين. كل ما كان لدى زيوجانوف، مثله فى ذلك مثل غيره من المرتدين الأيديولوچيين ضد العولمة، مجرد موقف ولكن بدون برنامج عملى،كثير من الأفكار عن كيفية توزيع الدخل وليس عن كيفية توليد الدخل.

غير أنه منذ ذلك الوقت أصبحت الردة ضد العولمة أكثر وضوحاً وانتشاراً. وما تشترك فيه كل قوى الارتداد هو شعور بأنه ما دامت بلادهم قد التحمت بالنظام العالمى، فهم مضطرين إلى ارتداء قميص القيد الذهبى الموحد المقاس للجميع. وبعض

الناس لا يحبون قميص القيد لأنهم يشعرون بالعجز الاقتصادى داخله. وبعضهم يشعرون بالقلق لأنهم لا يمتلكون المعرفة أو المهارات أو الموارد لتوسيع قميص القيد ولن يتحقق لهم النجاح على الإطلاق فى الحصول منه على الذهب. وبعضهم لا يحبونه لأنهم مستاؤون من فجوات الدخل الآخذة فى الاتساع التى تترتب على ارتداء قميص القيد أو من الطريقة التى يعتصر بها الوظائف من دول الأجور المرتفعة إلى دول الأجور المنخفضة. وبعضهم لا يحبونه لأنه يفتح أبوابهم أمام جميع القوى والتأثيرات العالمية التى تترك لدى أطفالهم شعوراً بالاغتراب عن ثقافاتهم وأشجار زيتونهم. وبعضهم لا يحبونه بسبب الضغوط التى يفرضها على بيئتهم. وبعضهم لا يحبونه لأنهم يشعرون بأن الأخذ ببلادهم إلى مستويات نظم تشغيل رأس المال 6.0 مهمة شديدة المشقة.

بعبارة أخرى، الردة ضد العولمة ظاهرة عريضة تغذيها كثير من الانفعالات وأسباب القلق المختلفة التى انطلقت بفعل هذا النظام الجديد وتحديات التكيف معه. وتعبر الردة عن نفسها بأشكال مختلفة عن طريق شخصيات مختلفة فى دول مختلفة. وهذا الفصل من الكتاب يدور حول تلك الانفعالات والأشكال والشخصيات المختلفة، وكيف أنها تتجمع معاً فتنشأ عنها دوامة لم تؤد ـ حتى الآن ـ إلا إلى مقاومة نظام العولمة ولكنها قد تصبح فى يوم ما من القوة بحيث تؤدى إلى زعزعته.

كما أشرت من قبل، إننى فى صيف عام 1998 كنت فى جولة فى البرازيل مع منظمة كونسيرڤيشن إنترناشيونال الدولية للمحافظة على البيئة، التى أنشأت متنزهاً إيكولوجياً فى الغابة المطيرة المطلة على المحيط الأطلنطى بالتعاون مع السكان فى مدينة أونا المجاورة، وذلك فى محاولة لمساعدتهم على إنشاء صناعة سياحية يمكن أن تخلق وظائف كافية تعوضهم عن قطع الأخشاب. ولقد دعت منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال ديجاير بريشنر، عمدة أونا البالغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً، لكى

يصحبنى فى أثناء جولتى ليشرح لى كيف كان ذلك كله يؤثر فى مدينته. كان العمدة من نوع شخصية پول بونيان، إذ كان والده وجده يعملان فى قطع الأخشاب، ولكنه فقد عمله الآن أساساً بسبب أنصار البيئة. كان العمدة بريشنر، أثناء تجولنا فى الغابة المطيرة، يربت على كل شجرة. كان يعرف نوع كل شجرة فى الغابة المطيرة باسمها البرازيلى. شعرت بإعجاب فورى بهذا الخشاب البرازيلى. كان هناك شىء شديد الصلابة فى شخصيته. وبعد الانتهاء من جولتنا، جلسنا فوق أريكة للرحلات على حافة الغابة الأطلنطية المطيرة وتحدثنا عن التحديات التى تواجه العمدة. وشرح لى العمدة أنه متفهم من الوجهة الفكرية أن قطع الأخشاب لم يعد العمل الذى يمكن الاستمرار فيه. ولكنه بقدر ما هو متفهم لذلك، فهو يعلم أيضاً أن بلدته الصغيرة ليست مستعدة للحياة بدون قطع أخشاب. تحدثنا لمدة نصف ساعة تقريباً، وعندما انتهيت من لقائى الصحفى مع العمدة، شكرته وبدأت فى حزم جهاز الكمبيوتر المحمول من طراز آى بى إم الذى أحمله معى، عندما قال لى، «الآن، أريد أن أطرح عليك: سؤالاً».

أجبته: «من فضلك اسأل ما تريد».

حينئذ نظر إلىّ العمدة فى عينى مباشرة وقال، هل تأمل فى أى مستقبل لنا؟»

أوجعنى سؤاله كما لو كنت قد تلقيت ضربة فى المعدة. وكادت الدموع تفر من عينى، وأنا أنظر عبر الأريكة نحو ذلك الرجل المعتد بنفسه، الثابت، العمدة كما يجب أن يكون العمدة، الذى يسألنى إن كان هناك ثمة مستقبل له ولسكان قريته. كنت أعلم تماماً السبب وراء السؤال الذى وجهه لى: «إن مواطنى قريتى لم يعد بوسعهم أن يعيشوا من عملهم فى الغابة ونحن لسنا مهيئين للعمل بالكمبيوتر. إن أبى وجدى كانا يكسبان رزقهما من قطع الأخشاب، وقد يكسب أحفادى رزقهم من الإنترنت. ولكن ماذا يفعل كل أولئك الذين يعيشون بين الجيلين؟»

تمتمت ببعض الإجابة العشوائية، فى محاولة لأن أوضح له فى كلمات بسيطة أنه هو وشعبه أمامهم مستقبل، ولكن عليهم أن يبدأوا فى فترة انتقالية ما بين اقتصاد زراعى إلى اقتصاد يعتمد بصورة أكبر على المعرفة، على أن يبدأوا بتوفير تعليم أفضل لأولاد البلدة. أنصت إلى العمدة وهو يومئ برأسه، وشكرنى بأدب شديد، ثم نهض ليذهب إلى سيارته. أخذت المترجم جانباً، والعمدة يهم بالانصراف، وسألته إن كان يستطيع أن يسأل العمدة عندما يصلان إلى سيارة العمدة، عن رأيه فى إجابتى عن سؤاله.

وبعد بضع دقائق عاد المترجم. وأبلغنى أن العمدة يريد فقط أن يذكرنى بشئ أشار إليه فى أثناء اللقاء الصحفى: إنه عندما يتوجه إلى مكتبه كل صباح يجد فى انتظاره مائتى شخص يسألونه عن الوظائف وعن المساكن والأغذية ـ ناهيك عن قاطعى الأخشاب المتوقفين عن العمل الذين يهددون حياته. وأنه إذا لم يتمكن من توفير الوظائف والمساكن والطعام لهم، فسوف يأكلون الغابة المطيرة ـ سواء أدى ذلك إلى بقائها أم لا.

قال المترجم: «لقد كان يريد منك فقط أن تفهم ذلك».

يمثل العمدة بريشنر جيلاً كاملاً من الناس المنتشرين فى أنحاء العالم اليوم ممن يشعرون بأن العولمة تهددهم لأنهم يخشون من أنهم لا يمتلكون مجموعة المهارات ولا الطاقة التى تدخلهم إلى «العالم السريع». وأنا أطلق على هؤلاء اسم «السلاحف»، لماذا؟ لأن رجال الأعمال فى وادى السيليكون يحبون دائماً تشبيه أعمالهم فائقة التنافسية بتلك القصة عن الأسد والغزالة فى الغابة: فالأسد يذهب للنوم كل ليلة فى الغابة وهو يعلم أنه فى الصباح، عندما تشرق الشمس، إذا لم يتفوق فى الجرى على أبطأ غزالة فإنه سيظل جائعاً. والغزالة تذهب للنوم كل ليلة فى الغابة وهى تعلم أنها فى الصباح، عندما تشرق الشمس، إذا لم تتفوق فى الجرى على أسرع أسد فسوف تكون إفطاراً

لواحد منهم. غير أن الشيء الوحيد الذى يعلمه الأسد والغزالة عندما يذهبان للنوم هو أنه فى الصباح، عندما تشرق الشمس ، فمن الأفضل لهما البدء فى الجرى.

وهذا هو الحال مع العولمة.

والمؤسف أن الجميع غير مزودين بما يساعدهم على الجرى بسرعة. فالعالم مليء بالسلاحف التى تسعى جاهدة إلى اجتناب مصير القتيل الملقى على الطريق. السلاحف هم كل أولئك الناس الذين امتصهم العالم السريع بعد تساقط الأسوار، ويشعرون الآن لسبب أو لآخر بأنه يهددهم اقتصادياً أو يرفسهم بعيداً. وليس السبب أنهم لا يجدون وظائف. بل السبب هو أن وظائفهم تتغير طبيعتها بسرعة كبيرة، أو تقل أهميتها، أو تتجدد لرفع كفاءتها أو تصبح طرازاً قديماً عفا عليه الزمن بفعل العولمة. ولأن ذلك التنافس العالمى ذاته يجبر حكوماتهم أيضاً على التقليل من حجمها وتجديدها لرفع كفاءتها فإن معنى ذلك أن الكثير من تلك السلاحف لن تجد الشبكة التى تسقط فوقها لتنقذها.

يوجد بالمسرحية الموسيقية ***راجايم*** *Ragtime* التى تعرضها برودواى مشهد يشرح فيه هنرى فورد عبقرية خط التجميع فى مصنعه. لقد ظلت أشعاره عالقة فى ذهنى، لأنها تصف بدقة كبيرة العالم الذى كان ذات يوم آمناً بالنسبة للسلاحف، ولكنه لم يعد كذلك الآن. تجرى سطور الأشعار التى يغنى بها هنرى فورد على النحو التالى:

هل ترى العاملين عندى؟ حسناً، إليك نظريتى
إلى ماذا يسير هذا البلد
كل عامل ترس متحرك.
نعم، تلك فكرة هنرى فورد.
رجل يجذب والآخر يرخى

ورجل واحد يحاول جذب حبل واحد
السيارات تتحرك فى اتجاه واحد
انحناءة احتراماً لهنرى فورد.
(حرك السير بسرعة، حرك السير بسرعة، يا سام!)
الإنتاج الضخم سوف يجتاح البلاد،
العالم يقدر الفكرة البسيطة.
حتى أولئك الذين لا يتمتعون بذكاء كبير
يستطيعون أن يتعلموا إحكام الصمولة إلى الأبد،
أن يثبتوا بدالاً واحداً أو يجذبوا رافعة واحدة .....

المؤسف أن أولئك الذين لا يتمتعون بذكاء كبير اليوم لن يتعلموا صنع شذرة الكمبيوتر الدقيقة إلى الأبد. فالوظيفة الجيدة تحتاج إلى عدة مهارات. كتبت مرة موضوعاً عن الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (وكالة المعونة الأمريكية)، التى تعمل عادة على توفير التدريب الوظيفى والمساعدة الاقتصادية للدول النامية فى أفريقيا، وكيف تحاول استخدام بعض تقنياتها لإحياء الأحياء الفقيرة فى داخل مدينة بالتيمور. أو كما جاء فى مانشيت لصحيفة ***بالتيمور صن***: «بالتيمور تجرب حلول دول العالم الثالث». من أسباب استدعاء بالتيمور لوكالة المعونة الأمريكية لمساعدتها هو أن سلاحفها الخاصة لم تنجح فى مواكبة العالم السريع. شرحت إحدى المسئولات فى المدينة المشكلة ببلاغة قائلة: إنه فى فترة الستينيات كانت شركة صُلب بيت لحم هى أكبر مستخدم (صاحب عمل) فى بالتيمور. فقد كان أى شخص حاصل على تعليم ثانوى أو أقل فى إمكانه الحصول على وظيفة فى مصنع الصلب. ويحيا حياة طيبة، ويشترى منزلاً، ويربى أولاده ويرسلهم إلى الكلية. وكان ذلك يعنى أن الحلم الأمريكى كان متاحاً أمام السلاحف حتى من أفقر الأحياء فى المدينة. واليوم أصبح أكبر

مستخدم فى بالتيمور هو مركز جونز هوبكنز الطبى. وما لم تكن ترغب فقط فى وظيفة البواب، فلن تتمكن حتى من إجراء مقابلة شخصية فى مركز جونز هوبكنز بدون حصولك على شهادة عليا. إذن فلتمتنع السلاحف عن التقدم بطلبات لشغل وظائف فيه. وأنت بالتأكيد لن تستطع التقدم بطلب وظيفة هناك إذا كنت واحداً من 150 ألف من سكان بالتيمور الأميين وظيفياً ـ ويبلغ إجمالى عدد السكان فى بالتيمور 730 ألف نسمة ـ (وقد ظل المسئولون فى بالتيمور يتساءلون عن السبب فى عدم حصول سكان المدينة الفقراء على الفائدة الكاملة من البرامج الاجتماعية الممولة جيداً فى المدينة، بعدها اكتشفوا أن معظمهم لا يستطيعون قراءة العلامات. وكان ذلك أحد أسباب استدعاء المساعدة من وكالة المعونة الأمريكية : فقد طورت مسلسلاً كاملاً من الشخصيات الكارتونية وغيرها من الوسائل البصرية للتغلب على مشكلة الأمية فى أفريقيا. وقد قال لى دكتور بيتر بيلينسون المفوض الصحى لمدينة بالتيمور عندما أجريت معه مقابلة صحفية: «هل تريد أن تعرف المفارقة الحقيقية؟ إن الشركة التى طورت برامج الاتصال هذه لوكالة المعونة الأمريكية من بالتيمور. وتقع مكاتبها على بعد بضع بنايات عن مكاننا هذا») .

مع تقدم العولمة، واستخدام الآلات بدلاً من كثير من الوظائف اليدوية المتكررة، وحاجتها إلى مزيد من المهارات لأداء الوظائف المتبقية، أصبحت الوظائف الجيدة التى تبقت للسلاحف أقل وأقل. نشرت صحيفة ***واشنطن بوست*** مقالاً فى يونيه 1998، عن إضراب العاملين فى شركة جنرال موتورز فى مدينة فلينت بولاية ميتشجان، تقدم للقارئ فكرة كاملة عن محنة السلاحف اليوم. وجاء فى الموضوع ما يلى: «فى السنوات العشرين الماضية خفضت شركة جنرال موتورز العمالة فى فلينت من 76 ألف عامل إلى 35 ألف عامل، وتقول إنها قد تلغى 11 ألف وظيفة أخرى على مدى السنوات القليلة القادمة ... وقد خفضت شركة جنرال موتورز إجمالى قوة العمل بها

فى الولايات المتحدة بواقع 297 ألف ساعة عمل على مدى العشرين سنة الماضية وخفضت إجمالى عدد الوظائف بها إلى 223 ألف وظيفة ... وبعض الوظائف انتقلت إلى كندا والمكسيك، حيث المصانع فيها إما أكثر كفاءة وإما أقل تكلفة، ***ولكن الآلات حلت ببساطة محل معظم العاملين***».

ونقل ذلك المقال عن جورج بيترسون، رئيس شركة أوتوباسيفيك، وهى شركة لبحوث واستشارات صناعة السيارات مقرها كاليفورنيا، قوله، إنه فى المصانع غير المنضمة إلى اتحاد عمال السيارات فى الولايات المتحدة ـ مثل مصنع الفرع الأمريكى لشركة هوندا للسيارات فى مدينة ماريسفيل بولاية أوهايو ـ يتمتع العاملون بمهارات متعددة ومقدرة على أداء مهام متعددة. وأضاف أن هذا التنوع يساعد شركة هوندا على خفض تكاليف الإنتاج. قال بيترسون: «ما زال ممكناً الحصول على وظيفة بوقت كامل فى هذه الصناعة، ***إذا كنت على استعداد لأداء أكثر من وظيفة واحدة***»، مشيراً إلى قلق اتحاد عمال السيارات إزاء الأمان الوظيفى.

وهكذا، فأنت لست فقط بحاجة، أكثر من أى وقت مضى، إلى مزيد من المهارات للحصول على وظيفة فى مجال التصنيع اليوم، وإنما أنت بحاجة أيضاً إلى مهارات متعددة للاحتفاظ بوظيفتك كى لا يستولى عليها الروبوت. وذلك يصعّب الأمر كثيراً على السلاحف.

لقد ظل المحللون يتساءلون منذ فترة وحتى الآن عما إذا كانت السلاحف التى خلفتها العولمة وراءها، أو تعرضت إلى معاملة قاسية منها، سوف تطور أيديولوچية بديلة تحل محل رأسمالية السوق الحرة الليبرالية. وكما أشرت من قبل، فإنه فى الحقبة الأولى للعولمة، عندما شهد العالم للمرة الأولى التدمير الخلاق الذى تحدثه الرأسمالية العالمية، أفرزت الردة فى نهاية الأمر مجموعة كاملة من الأيديولوچيات الجديدة ـ الشيوعية والاشتراكية والفاشية ـ التى كانت تعد بالإمساك بزمام الأمور بديلاً عن

الرأسمالية، ولا سيما بالنسبة للعامل العادى. والآن، بعد أن فقدت هذه الأيديولوچيات مصداقيتها فإننى أشك فى أننا سنشهد رد فعل أيديولوچى جديد ومتماسك وعالمى للعولمة ـ لأننى لا أعتقد أن هناك أيديولوچية ستتمكن من تخفيف حدة قسوة الرأسمالية وتتمكن فى الوقت نفسه من الارتفاع بمستويات المعيشة بصورة مطردة.

فى اعتقادى أن ما سوف يحدث بدلاً من ذلك هو أن السلاحف وكل أولئك الذين لن يتمكنوا من المواكبة لن يشغلوا أنفسهم بالبحث عن أيديولوچية بديلة. وسوف تتخذ ردتهم شكلاً مختلفاً. كل ما سيفعلونه هو أن يلتهموا الغابة المطيرة ـ كل بطريقته الخاصة، بدون محاولة تفسير ذلك أو تسويغه أو تغليفه بلفافة أيديولوچية. فى إندونيسيا، سوف يلتهمون التجار الصينيين بسلب حوانيتهم. وفى روسيا، سوف يبيعون الأسلحة لإيران أو يتحولون إلى الجريمة. وفى البرازيل، سوف يقطعون الأشجار الباقية فى الغابة المطيرة أو ينضمون إلى حركة الفلاحين فى الريف البرازيلى المعروفة باسم «سيم تيتو Sem Teto» (المحرومون من الأسطح)، الذين يسرقون ببساطة ما يحتاجون إليه. ويوجد نحو 3.5 مليون من هؤلاء فى البرازيل ـ مزارعون بدون أراض، يعيشون فى نحو 250 معسكراً منتشرة فى أنحاء البلاد. أحياناً يعيشون على الشوارع، وما عليهم إلا أن يغلقوا الشوارع إلى أن يُدفع لهم أو يبعدونهم بالقوة، وأحياناً يغزون أسواق السوبر ماركت أو يسطون على البنوك أو يسرقون الشاحنات. ليست لديهم راية ولا بيان رسمى. كل ما لديهم احتياجات وآمال غير مشبعة. وهذا هو السبب فى أن ما نشهده فى كثير من الدول ليس معارضة شعبية جارفة، وإنما موجة تتبعها موجة من الجريمة ـ كل ما يفعله الناس هو اختطاف احتياجاتهم، ونسج شبكات الأمان الاجتماعى الخاصة بهم، ولا يعبأون بالنظرية أو الأيديولوچية.

* * *

العولمة، مثل كل الثورات، تنطوى على انتقال السلطة من جماعة إلى أخرى. وتنطوى فى معظم الدول على انتقال السلطة من الدولة وموظفيها البيروقراطيين إلى القطاع الخاص ورجال الأعمال. وحينما يحدث ذلك، يمكن أن يصبح من الخاسرين كل أولئك الذين اكتسبوا مكانتهم من وظائفهم البيروقراطية أو من علاقتهم بها، أو من مراكزهم فى نظام اقتصادى فرضت عليه ضوابط وحماية مشددة إذا لم ينجحوا فى الانتقال إلى العالم السريع. ويشمل هذا رجال الأعمال وأصدقاءهم المقربين الذين يستفيدون من احتكار الحكومة للواردات والصادرات، ورجال الصناعة الذين تحميهم الحكومة بفرض تعريفات جمركية مرتفعة على الواردات من المنتجات التى يصنعونها، ونقابات العمال الكبرى التى اعتادت على الفوز بساعات عمل أقل وأجور أعلى مع إبرام كل عقد عمل جديد، والعمال فى المصانع المملوكة للدولة الذين يحصلون على أجورهم سواء حقق مصنعهم أرباحاً أم لم يحقق، والعاطلين فى الدول الغنية الذين يتمتعون بمزايا سخية نسبياً وبرعاية صحية فى كل الأحوال، وكل أولئك الذين اعتمدوا على كرم الدولة فى حمايتهم من السوق وحررتهم من أكثر جوانبها قسوة .

وهذا يفسر السبب فى أنه فى بعض الدول لا يأتى أقوى ارتداد ضد العولمة، من أفقر شريحة من السكان ومن السلاحف، وإنما من أولئك الذين «اعتادوا الوقوف» فى الطبقة الوسطى والطبقة الوسطى الأدنى، الذين عثروا على أكبر قدر من الأمان فى ظل النظم الشيوعية والاشتراكية والاجتماعية التى تفرض حمايتها عليهم. لقد أصبح هؤلاء فى شدة التعاسة، بعد أن شهدوا أسوار الحماية تنهار من حولهم، وشهدوا الألاعيب التى ازدهروا فى ظلها وهى تنكشف، وشبكات الأمان وهى تتقلص من تحتهم. تلك الجماعات التى انحدر بها الحال، لديها القبضة السياسية التى تمكنها من تنظيم نفسها ضد العولمة وذلك على عكس السلاحف.

تكشفت لى للمرة الأولى ردة الطبقة الوسطى هذه بالصدفة عندما كنت فى بيجنج (بكين) أتحدث إلى وانج جيزى، الذى يرأس قسم الدراسات الأمريكية فى

الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية. كان الحديث قد ابتعد بنا عن مناقشة أمريكا إلى مناقشة حياته الخاصة فى الصين التى كانت تتحرك سريعاً نحو السوق الحرة، التى يرحب بها الكثيرون من الصينيين ويخشونها فى آن واحد. قال وانج: «آلية السوق قادمة إلى الصين، ولكن السؤال هو كيف يمكن فرضها. أنا أعتمد على الوحدة التى أعمل بها فى توفير المسكن لى. فإذا تحول الإسكان كله إلى نظام السوق الحرة فقد أفقد مسكنى. إننى لست محافظاً، ولكن عندما يصل الأمر إلى قضايا عملية مثل هذه. فقد يصبح الناس محافظين إذا ألقى بهم إلى السوق بعد أن اعتادوا على أن يكون هناك من يعتنى بهم. لقد اشتكى لى سائق سيارتى ذات يوم من أنه عندما كان أصغر سناً أسهم بكل طاقته وبكل ما يملك فى إقامة صرح الماوية وفى 'البناء الاشتراكى'. ولكنه أصبح الآن فى الخامسة والأربعين أو الخمسين من عمره وأصبح فجأة مطالباً بأن يندمج فى السوق. وهو يسأل الحكومة : 'هل من العدل أن أكرس نفسى لكل ما طلبتم منى طوال عقود من الزمن ثم فجأة تنسوننى الآن، وتدفعون بى إلى السوق بعد أن تقدم بى العمر؟ هذا ليس عدلاً. إننى لم أخطئ فى شىء . لقد كنت دائماً أتبع تعليماتكم أيتها الحكومة العزيزة، ولكن تعليماتكم الآن لى هى أن أنسى وجود الحكومة'. إن [هذا السائق] يسعد بالعمل معنا هنا، وهو لا يريد أن يصبح سائق تاكسى وأن يفقد كل ما يحصل عليه من مزايا. إنه لا يريد أن يكون فى السوق».

لست بحاجة إلى أن تكون، من قبل، نحلة شيوعية عاملة لتشعر على هذا النحو. نقل لى ذات مرة بيتر شوارتز، رئيس شركة جلوبال بيزنيس نيتورك، وهى شركة استشارية، حديثاً دار قبل أن يُجرى معه لقاء صحفى فى لندن لأحد البرامج الاقتصادية لإذاعة البى بى سى. «سألنى مقدم العرض البريطانى، وهو يصحبنى إلى اللقاء، عن بعض أفكارى الأساسية. ألمحت إلى فكرة أن بريطانيا مثال جيد لانطلاق اقتصاد القطاع الخاص ـ ولا سيما عند مقارنته ببقية أوروبا ـ وأن أفضل مؤشر على هذا الاختلاف

هو الفرق فى معدل البطالة بين المملكة المتحدة، وبقية الدول فى قارة أوروبا. عند هذه النقطة سألنى: «أليس ذلك شيئاً فظيعاً؟ لقد أصبحت إعانات البطالة الآن منخفضة كثيراً فى بريطانيا إلى درجة أن الأمر لم يعد يستحق الاكتفاء بهذه الإعانة وأن الناس عليهم أن يذهبوا إلى العمل».

بعدئذ أضاف شوارتز: «هناك من الناس من يرى فى هذا التحول (إلى العولمة) خسارة كبرى، وليس مكسباً. إنهم لا يفقدون إعانة فقط وإنما يفقدون شيئاً يرون أنه حق لهم ـ تلك هى فكرة أن المجتمعات الصناعية الحديثة من الثراء بحيث إنه من حق الناس الحصول على تأمين سخى عند البطالة».

إذا كنت تريد رؤية هذه الحرب بين من كانوا يحصلون على الحماية وبين دعاة العولمة فى أحد حالاتها اليوم، فاذهب إلى العالم العربى. ففى عام 1996، كان من المقرر أن تستضيف مصر مؤتمر القمة الاقتصادى للشرق الأوسط، الذى كان سيجمع بين المسئولين التنفيديين للشركات الخاصة الكبرى الغربية والآسيوية والعربية والإسرائيلية. وحاربت البيروقراطية المصرية بضراوة عقد هذا المؤتمر. وكان ذلك من ناحية بتوجهات سياسية من أولئك المصريين الذين لا يشعرون أن إسرائيل فعلت ما يكفى بالنسبة للفلسطينيين مما يجعلها تستحق التطبيع. ولكنه كان من الناحية الأخرى يرجع إلى أن البيروقراطيين المصريين، الذين سيطروا على الاقتصاد المصرى منذ تأميم جمال عبد الناصر لكل المؤسسات التجارية الكبرى فى الستينيات، أدركوا بحدسهم أن هذه القمة قد تكون الخطوة الأولى تجاه فقدهم لنفوذهم لصالح القطاع الخاص، الذى كان بالفعل قد منح الفرصة لشراء الشركات المختلفة المملوكة للدولة، وأنه قد يضع فى نهاية الأمر يده على وسائل الإعلام التى تسيطر عليها الدولة. لقد نددت صحيفة ***الشعب*** المعارضة بالقمة الاقتصادية باعتبارها «مؤتمر العار». غير أن القطاع الخاص المصرى نجح، لأول مرة، فى تنظيم نفسه فى جماعات للضغط ـ مثل الغرفة

التجارية الأمريكية المصرية ، والمجلس الرئاسى لقادة الأعمال المصريين وجمعية رجال الأعمال فى مصر ـ واجتذبوا الرئيس مبارك فى الاتجاه الآخر، وقالوا، إن استضافة هذا المؤتمر ومشاركة مئات المستثمرين من أنحاء العالم فيه شيء جوهرى من أجل توفير الوظائف لقوة العمل المصرية التى ينضم إليها 400 ألف شخص جديد كل عام. وظل الرئيس مبارك بين الشد والجذب إلى أن انحاز إلى جانب القطاع الخاص ووافق على استضافة القمة ، وأعلنها صراحة فى كلمته الافتتاحية قائلاً: «فى هذا العام انضمت مصر إلى الاقتصاد العالمى. وسوف تعيش وفقاً لقواعده». ولكن البيروقراطية المصرية، التى لا ترغب فى التخلى عن أى نفوذ للقطاع الخاص، ما زالت تحارب هذه الخطوة، وكلما حدث اتجاه إلى الهبوط فى الاقتصاد العالمى، مثل الانهيار الآسيوى فى عام 1998 يذهب البيروقراطيون المصريون إلى الرئيس مبارك، ويقولون له: «انظر، لقد قلناها لك، لابد أن نبطئ قليلاً من اندفاعنا، عليك أن تقيم بعض الأسوار الجديدة، وإلا فسوف يحدث لنا ما حدث للبرازيل.

والآن تنطلق طبول الحرب هذه فى أنحاء العالم العربى، من المغرب إلى الكويت. وقد وصف أحد المسئولين الماليين العرب البارزين ذلك الصراع العولمى فى بلاده فقال: «أحياناً أشعر بأننى جزء من الحركة الماسونية أو المجتمع السرى، لأننى أنظر إلى العالم بشكل مختلف عن الكثيرين من الناس حولى. هناك فجوة هائلة فى اللغة والمفردات بينى وبينهم. وليس الأمر أننى أخفقت فى إقناعهم. فإننى غالباً لا أستطيع حتى التواصل معهم، إنهم بعيدون كثيراً عن هذه النظرة العالمية. ولذلك، يصبح السؤال دائماً بالنسبة لى، عندما أسعى إلى تنفيذ سياسات متعلقة بالعولمة، هو كم عدد الأشخاص الذين أستطيع جمعهم حول هذا المفهوم الجديد بحيث أنجح فى تجميع القوة اللازمة لإحداث تحول؟ إنك إذا نجحت فى توفير العدد الكافى من شعبك لوضعهم فى الأماكن المناسبة، فسوف تنجح فى دفع النظام إلى الأمام. ولكن تلك

مهمة شاقة. وأشعر فى كثير من الأيام كمن يجئ إليه الناس، يقولون له: 'إننا بالفعل بحاجة إلى إعادة طلاء الحجرة'. وأقول أنا لهم، 'كلا، إننا فى الواقع بحاجة إلى إعادة بناء المبنى كله على أساسات جديدة'. وهكذا يدور كل حديثهم معك حول اللون الذى سوف يستخدم فى الطلاء، فى حين كل ما تستطيع أن ترسمه فى مخيلتك بناء جديد كامل يجب تشييده وأساسات جديدة يجب إرساؤها. وبعد ذلك يمكن أن نشغل بالنا بلون الطلاء ! لقد أصبح فى البرازيل والمكسيك والأرجنتين الآن ذلك التجمع المؤثر من الناس والمسئولين الذين يستطيعون رؤية هذا العالم. ولكن معظم الدول النامية لا يوجد فيها بعد، وهذا هو السبب فى أن التحول ما زال حتى الآن غير مؤكد.

وفى المغرب، كل ما تفعله الحكومة هو ببساطة إجراء الخصخصة ببيع الكثير من الشركات المملوكة للدولة لتلك الزمرة الاقتصادية الصغيرة المرتبطة بالقصر الملكى التى كانت ذات مرة تسيطر على احتكارات الدولة. وذلك هو السبب فى أن 3 فى المائة فقط من سكان المغرب يسيطرون على 85 فى المائة من ثروة البلاد. والجامعات المغربية التى تجمع على نحو فريد بين أسوأ ما فى نظم التعليم الاشتراكى والفرنسى، تخرّج كل عام الكثيرين من الخريجين الذين لا يستطيعون العثور على وظائف، وليست لديهم مهارات للعمل الخاص أو مهارات تقنية تتناسب مع اقتصاد المعلومات اليوم، إلى درجة أنه أصبح هناك فى المغرب الآن «اتحاد لخريجى الجامعات العاطلين».

إنك تجد فى كل دولة تقريباً ارتدت قميص القيد الذهبى حزباً شعبياً واحداً أو مرشحاً رئيسياً على الأقل يدعو طوال الوقت ضد العولمة. وهؤلاء يقدمون الحلول الحمائية الشعبية المختلفة التى يزعمون أنها ستؤدى إلى مستويات المعيشة نفسها، بلا حاجة إلى الجرى بهذه السرعة أو التجارة على هذا البعد أو فتح الحدود على مصراعيها على هذا النحو. جميعهم يزعمون أنه بمجرد إقامة بضع أسوار جديدة هنا

وهناك سوف تصبح الأمور على ما يرام. وهؤلاء يستميلون إلى جانبهم كل من يفضلون ماضيهم على مستقبلهم. فى روسيا، على سبيل المثال، يواصل الأعضاء الشيوعيون فى مجلس الدوما قيادة الردة ضد العولمة بأن يقولوا للطبقات العاملة وأصحاب المعاشات إنه ربما كانت وظائفهم أثناء وجود الاتحاد السوفيتى سيئة وربما كانوا مضطرين إلى الوقوف فى طوابير الخبز، ولكنهم كانوا متأكدين دائماً من أن الوظائف موجودة ومن وجود الخبز الذى يتحملون شراءه عندما يصلون إلى أول الطابور.

وتعتمد قوة هؤلاء الشعبيين والمرشحين المناهضين للعولمة، إلى حد بعيد، على ضعف الاقتصاد فى بلادهم. إذ إنه غالباً، كلما كان الاقتصاد ضعيفاً، اتسع نطاق من يجتذبهم اتباع مثل هذه الحلول المبسطة. ولكن الاعتقاد بأن هؤلاء لا يزدهرون إلا فى الأوقات السيئة قد يكون غلطة كبرى. ففى عام 1998، رفضت أغلبية أعضاء الكونجرس الأمريكى منح الرئيس سلطة توسيع منظمة نافتا لتضم شيلى إلى عضويتها ـ شيلى الصغيرة ـ بدعوى أن ذلك قد يؤدى إلى فقد وظائف أمريكية. سادت وجهة النظر العنيدة تلك فى وقت كانت بورصة الأوراق المالية الأمريكية تحقق فيه ارتفاعاً قياسياً، وكانت البطالة فى أدنى مستوى لها، وكانت كل الدراسات تقريباً تشير إلى أن اتفاقية نافتا كانت مكسباً ومكسباً ومكسباً للولايات المتحدة وكندا والمكسيك. تأمل مدى غباء ما حدث: خصص الكونجرس الأمريكى 18 مليار دولار لإعادة تمويل صندوق النقد الدولى، حتى يتمكن من القيام بعمليات إنقاذ أخرى للدول التى تعانى من العولمة، ولكن الكونجرس رفض توسيع اتفاقية نافتا لمنطقة التجارة الحرة لتشمل شيلى. فما هو المنطق فى ذلك؟ لا يمكن سوى أن يكون: «نحن ندعم المساعدات لا التجارة».

إنه شيء غير منطقى، ولكن السبب فى أن مثل هذه الآراء يمكن أن تتردد فى أوقات اليسر وفى أوقات العسر على السواء هو أن لحظات التغير السريع على هذا النحو تشيع من عدم الأمان ما يوازى ما تشيعه من ازدهار. فما زال نظام العولمة جديداً بالنسبة لكثيرين من الناس، وينطوى على كثير من التغييرات لكثيرين من الناس، بحيث لا تسمح لهم بأن يكونوا على ثقة حتى من أن الوظيفة الجيدة التى يشغلونها ستظل موجودة دائماً. وذلك يسمح بوجود الردة من جانب هؤلاء الدهماء بحلولهم المبسطة، سواء كانوا على شاكلة بات بوكانان عضو الكونجرس الأمريكى أم جان مارى لو بان فى فرنسا.

فى الوقت الذى تلتحم فيه مزيد من الدول فى نظام العولمة وبالعالم السريع ما زالت هناك جماعة ارتدادية جديدة بدأت فى التجمع ـ تلك هى الغزلان الجريحة. وتضم هذه الجماعة الناس الذين يشعرون بأنهم جربوا نظام العولمة، والذين أصابهم هذا النظام بضرباته المتكررة، والذين بدلاً من النهوض على أرجلهم مرة أخرى وإزاحة التراب عنهم، وبذل كل ما فى وسعهم من أجل العودة مرة أخرى إلى العالم السريع، يصطنعون الآن محاولة أن يوصدوا الباب فى وجه العولمة أو يعملوا على تغيير قواعد النظام بأسره. ويعتبر أصدق مثال لهذه الجماعة رئيس الوزراء الماليزى مهاتير. إن غضب جهنم ذاته لا يوازى غضب من احترق بنار العولمة. فى 25 أكتوبر 1997، وفى ذروة الانهيار الاقتصادى الآسيوى، أعلن مهاتير أمام قمة الكومنولث فى أدنبرة أن الاقتصاد العالمى ـ الذى ضخ مليارات الدولارات من الاستثمارات فى ماليزيا، التى لم يكن ليتحقق لها ذلك النمو المذهل بدون هذه الاستثمارات ـ قد أصبح «مثيراً للفوضى».

قال مهاتير وهو ينفث غضبه: «هذا عالم ظالم. لقد كافح الكثيرون منا كفاحاً شاقاً بل وضحى بدمائه من أجل الحصول على الاستقلال. وعندما تُزال الحدود ويصبح العالم كياناً واحداً فإن الاستقلال قد يصبح بلا معنى».

ليس من المستغرب إذن أن يكون مهاتير فى عام 1998 هو أول عولمى آسيوى يفرض قيوداً على رأس المال فى محاولة لإيقاف المضاربات الشرسة على عملته وفى بورصته. وعندما وصف جورج يوو، وزير الإعلام فى سنغافورة، تلك الخطوة التى اتخذها مهاتير، فإنه قال، «لقد لجأت ماليزيا فى تراجعها إلى بحيرة ضحلة وهى تحاول أن ترسى فيها زوارقها، ولكن تلك الاستراتيچية لا تخلو من المخاطر».

حقاً إنها لا تخلو من المخاطر. فإن كنت تظن أنه باستطاعتك التقهقر بصفة دائمة إلى مكان ثالث مبنى على أساس زائف، وتستمتع بكل مستويات المعيشة للعالم السريع بدون أى ضغوط، فإنك فى الحقيقة تخدع نفسك وتخدع شعبك.

بيد أن الدول النامية تلقت تقهقر مهاتير المؤقت بكثير من التعاطف ـ رغم أن إحداها لم تقلده. فقد أصبح هناك، ونحن بسبيلنا إلى دخول العقد الثانى من العولمة، إدراك متزايد بين تلك الدول التى قاومت ارتداء قميص القيد الذهبى والعالم السريع بأنها لن تستطيع الاستمرار فى المقاومة. وهى تعلم أن استراتيچية للتقهقر لن تؤدى إلى النمو على المدى الطويل. ولذلك فهى تقول الآن: «بربكم، ألا يستطيع أحدهم على الأقل إبطاء حركة العالم السريع قليلاً حتى نستطيع القفز إليه بدون أن تنقلب بلادنا رأساً على عقب؟» لقد كنت طوال عدة سنوات أتقابل مع عماد الدين أديب رئيس تحرير صحيفة ***العالم اليوم*** المصرية، فى مؤتمرات مختلفة للبنك الدولى وغيرها من المناسبات، وظل طوال سنوات يعبر لى عن تحفظاته القوية إزاء انضمام مصر لنظام العولمة. وعندما قابلته فى عام 1999، فى منتدى داڤوس، قال لى: «حسناً، أوافقك على أننا يجب أن نستعد لهذه العولمة وأن هذا جزء من مسئوليتنا. إنه قطار لا يتوقف كثيراً، وكان يجب علينا أن ندرك ذلك وأن نفعل ما يجب علينا أن نفعله. ولكنك الآن يجب أن تهدىء قليلاً من سرعة هذا القطار حتى تكون لدينا فرصة القفز إليه».

لم تطاوعنى نفسى أن أقول له إننى انتهيت من توى من مناقشة دارت حول التجارة عبر الإنترنت ـ مع بعض كبار المجددين فيها ـ وخلصوا إلى أن العالم لن يتباطأ فقط، ولكنه، مع هذا الانتشار السريع للإنترنت، سوف يصبح أكثر سرعة. وقلت لأديب، أتمنى أن نستطيع تهدئة هذا القطار، غير أن هذا القطار ليس به سائق محدد.

كنت ذات مرة أتناول القهوة فى مقهى الإنترنت بالعاصمة الأردنية عمان، الذى يطلق عليه اسم مقهى@الكتب ويقع فى الشارع الذى توجد به الأطلال التى تحظى بعناية فائقة لواحد من أعظم المسارح الأثرية الرومانية فى الشرق الأوسط. كانت زيارتى تلك للمقهى فى سبتمبر 1997، حيث توقف مالكها، مدين الجزيرة، عند مروره أمام طاولتى ليقدم لى نفسه. تمسّك هو بأن يقدم لى قطعة من فطيرة كريمة الموز على حسابه. لماذا بالذات فطيرة كريمة الموز؟ كان سؤالى له. حسناً، لقد وضح لى أنها من صنع زوجة نائب السفير الإسرائيلى فى عمان.

قلت له: «أفهمنى إياها مباشرة، فطيرة كريمة الموز فى مقهى الإنترنت بعمان من صنع زوجة نائب السفير الإسرائيلى! شىء عظيم. كم يعجبنى ذلك».

حسناً، لم يكن ذلك شىء عظيم بالنسبة للجميع، حسبما وضح لى. إذ عندما اكتشف الإسلاميون الأصوليون فى عمان أن فطيرة كريمة الموز فى مقهى الإنترنت بعمان من صنع زوجة دبلوماسى إسرائيلى، طالبوا بمقاطعة مقهى الإنترنت حتى تحذف الفطيرة من قائمة ما يقدم فى المقهى. وأضاف مالك المقهى قائلاً: «بل إنهم طالبوا بمقاطعة الشبكة المحلية للإنترنت». (ويبدو أن الدعوة إلى المقاطعة أخفقت وما زالت الفطيرة موجودة فى قائمة ما يقدمه المقهى!)

يمثل الأصوليون المناهضون لفطيرة كريمة الموز الإسرائيلية الصناعة ارتداداً آخر ضد العولمة. إنها ردة كل هؤلاء الملايين من البشر الذين يحتقرون الطريقة التى تعمد

بها الإنترنت إلى تجانس الناس، وتضع بها فطيرة كريمة الموز إسرائيلية الصناعة فى مواجهة المسلمين الأردنيين، وتأتى بالأغراب إلى ديارك بطرق غريبة، وتمحو تميز الثقافات، وتقتلع بلا رحمة أشجار الزيتون التى تحدد موقعك من العالم وتشدك إليه. ومن الواضح أن الكثيرين من الناس على استعداد إما للتخلى عن كثير من ثقافاتهم المحلية لصالح الثقافة الاستهلاكية للعولمة والأمركة وإما أن يستخدموا الحيلة للجمع بين الاثنتين فى حياتهم، وملابسهم، وعادات الأكل لديهم، ونظرتهم للحياة. ولا يجب على الإطلاق بخس قدرة الناس على التحايل للجمع بين مثل هذه الأشياء. ولو لم يكن الناس بهذه القدرة على استخدام الحيلة، لما تمتعت مطاعم ماكدونالدز أو شخصيات ديزنى بكل هذا الانتشار فى أنحاء العالم. غير أن هناك بعض الناس ممن لا يتقنون التحايل. بل الواقع أنهم على استعداد لخوض الحرب لحماية ثقافتهم المحلية من الثقافة العالمية. وتتمثل صيحتهم للحرب فى: «لا أريد أن أكون عالمياً. أريد أن أكون محلياً». بالنسبة للعولميين فإن المكانة تعنى أولئك الأكثر ارتباطاً بالعالم. وبالنسبة للأصوليين المكانة لأولئك الأقل ارتباطاً ـ بأى شىء سوى مصدر واحد للحقيقة.

وتصبح هذه الردة الثقافية أشد ما يكون زعزعة للاستقرار السياسى عندما تتزاوج مع ردة أخرى ـ حين تندمج الجماعات الأكثر حرماناً من الناحية الاقتصادية مع أولئك المضطهدين ثقافياً. وتبدو هذه الظاهرة أوضح ما تكون فى الشرق الأوسط، حيث أصبح الأصوليون من جميع الأنواع يتميزون بمهارة شديدة فى نسج الأسباب الثقافية والسياسية والاقتصادية للردة ضد العولمة فى راية واحدة وحركة سياسية عريضة تسعى إلى الاستيلاء على السلطة وتضع النقاب بينها وبين العالم. لقد كانت أول راية رفعتها المعارضة الجزائرية عبارة عن كيس فارغ مما يوضع فيه الكسكسى، تلك الوجبة الشعبية فى منطقة شمال أفريقيا، التى ترمز إلى إحباط العمال الجزائريين، ولا سيما الشباب منهم، بسبب ما يعانونه من بطالة. غير أن هؤلاء الذين يحملون كيس

الكسكسى الفارغ هذا أخذوا ينحازون ببطء إلى الإسلاميين الأصوليين المعارضين لسيطرة الأسلوب الغربى فى الحياة والأساليب العلمانية لنظام الحكم الجزائرى، ونجحوا معاً فى إحداث ردة قوية، فى ظل الراية الخضراء للإسلاميين، ضد أولئك الجزائريين الذين يريدون ربط بلادهم بنظام العولمة.

كذلك يمثل بنيامين نيتنياهو، الذى انتخب رئيساً لوزراء إسرائيل فى عام 1996، إلى حد ما نوعاً من الردة السياسية ضد مشكلات اتفاقيات أوسلو للسلام، ولكنه كان يمثل أيضاً ردة ثقافية ضد العولمة والتكامل الكامنين ضمناً فى عملية السلام بين إسرائيل والعرب. لقد أبدى لى موشيه هالبرتال عالم الدين الإسرائيلى ذات مرة ملاحظة بأن رؤية شيمون بيريز بأن يشترك أحفاده وأحفاد ياسر عرفات «معاً فى صنع شذرة الكمبيوتر الدقيقة» كانت شيئاً يمثل بالضرورة تهديداً لكثيرين من اليهود المتدينين فى إسرائيل. لقد كانوا يخشون من إنه إذا سقطت أسوار الجيتو المحيطة بإسرائيل وذابت إسرائيل فى الشرق الأوسط ـ كما ذاب اليهود الأمريكيون فى أمريكا ـ فلن يكون ذلك فى مصلحة اليهودية. كانوا يخشون من أنه عند حد معين لن تستطيع حركة «السلام الآن» و«اليهودية الآن» التعايش معاً حقيقة ـ ولا سيما عندما يبدو أن السلام يعنى مزيداً من العولمة، ومزيداً من التكامل، ومزيداً من شرائط فيديو بلوكباستر، ومزيداً من محطات الكابلات الملطخة بالسواد، ومزيداً من محال بيتزا هت. من هنا ظهرت تلك اللافتات فى الأحياء الدينية المتعصبة ليلة انتخاب نيتنياهو فى عام 1996: «صوتوا من أجل بيبى! فذلك فى صالح اليهود». غير أن الردة الثقافية فى إسرائيل ضد العولمة اندمجت مع الردة الاقتصادية والسياسية. ففى أعقاب اتفاق السلام مع الأردن، بدأت صناعة النسيج الإسرائيلية فى اتخاذ خطوات منطقية؛ وهى نقل وظائف النسيج ذات المهارات القليلة من مدن التطوير الإسرائيلية، مثل كيريات جات، عبر النهر إلى الأردن، حيث الأجور هناك جزء ضئيل من الأجور فى إسرائيل. وفجأة،

وجد عمال النسيج الإسرائيليون الذين لم يكونوا مهيئين للعمل فى مصنع إنتل Intel الذى بنى فى إسرائيل أيضاً أن وظائفهم تنتقل إلى الأردن ـ وهو مكان كان من المستحيل أن تنتقل إليه وظائفهم لولا السلام والعولمة. ويخشى عمال كيريات جات من عدم اتفاق «السلام الآن» مع «الوظائف الآن»، ونظراً لأن الكثيرين منهم من اليهود الشرقيين، فقد جاء رد فعلهم على صورة مساندة سياسية لحزب شاس، وهو حزب السفارديم شديد التعصب الدينى المعارض للعولمة على أسس دينية وثقافية ويتركز اهتمامه على «المسيح الآن». وهكذا فقد اندمجت معاً المسيح الآن، واليهودية الآن والوظائف الآن فى حركة احتجاج واحدة معادية للعولمة.

لا عيب، دون شك، فى محاولة أن تبنى مجتمعك على أساس القيم الدينية والتقاليد. وليس كل من يدعو إلى ذلك ضالعاً بصورة أو بأخرى فى العنف الأصولى. ولكن عندما تكون الأصولية غير مدفوعة بالتعاليم الروحية الحقيقية، ولكن مدفوعة بالردة ضد العولمة فإنها تسقط فى الطائفية والعنف ورفض الآخرين. وكلما زادت عزلتهم، ضعفت شبكة اتصالاتهم وزاد تخلفهم عن الآخرين، وكلما زاد تخلفهم عن الآخرين، زاد استعدادهم للتقهقر ورفض العالم الخارجى بفرض مزيد من العزلة على أنفسهم.

ولكن ليس من الضرورى أن تكون مسلماً أو يهودياً حتى ترغب فى الارتداد ضد العولمة لما تصيبك به من إحساس بالغربة فى دارك ذاتها. فتلك ظاهرة عالمية. كنت فى جولة لى فى آسيا عندما كان الأستراليون يجرون انتخاباتهم العامة فى عام 1996 وأدهشنى أن تكون معظم حملتهم الانتخابية تدور حول البسكويت وملابس السباحة. نعم، كانت القضية فى أستراليا هى: أن جون هوارد، الذى كان فى ذلك الوقت رئيساً لحزب المحافظين الأسترالى، زعم أن حزب العمال بزعامة پول كيتينج فى غمرة حماسه لكى يجعل أستراليا تتكامل مع الاقتصاد العالمى وأن تصبح أكثر انفتاحاً

أمام الاستثمار الأجنبى، قد أوجد وضعاً ساعد الشركات العالمية المتمركزة فى الخارج على شراء أكثر الشركات الأسترالية نجاحاً بحيث أصبحت ملكاً للأجانب. وزعم هوارد أن أستراليا تفقد رموزها الوطنية، بل فى الواقع سيادتها وهويتها، للسوق العالمية، على الرغم من سعى أستراليا إلى النهوض باقتصادها. وأشار، بصفة خاصة، إلى أن شركة آرنوت للبسكويت، الذى نشأ عليه كل تلميذ أسترالى، قد بيعت لشركة أمريكية (ليس أقل من شركة كامبلز سوپ!)، قد تبدأ فى العبث فى مكونات حلوى آيسْد ڤو ـ ڤوس Iced Vo-vos ـ أشهر أنواع الحلوى الأستراالية ـ المصنوعة من حلوى الخطمى وجوز الهند. وقال هوارد: لقد حدث هذا بالنسبة لشركة ملابس السباحة الشهيرة من ماركة سبيدو Speedo، التى بيعت لشركة أمريكية. وأصبح بالفعل ما حدث لحلوى الآيسد ڤو ـ ڤوس وملابس السباحة ماركة سبيدو من الموضوعات الساخنة فى الحملات الانتخابية. وقد ساعد ذلك الحماس الذى أبداه هوارد تجاه شجرة الزيتون على أن يهزم كيتنج المحب للسيارة ليكساس هزيمة قاسية.

بعد مضى عام كنت أسير عبر الأراضى الزراعية بولاية إنديانا فى ربيع عام 1997 فى طريقى إلى جامعة پوردو. وكان يصحبنى إليها البروفيسور جون لارسون أستاذ التاريخ بجامعة پوردو الذى يرعى حقوق الآخرين. ولدى اقترابنا من لافاييت شاهدت مصنعاً ضخماً يظهر فى الأفق. سألته: «ما هذا؟» قال بروفيسور لارسون موضحاً ونحن نقترب منه: «إنه مصنع شركة سوبارو». ثم أضاف: إن مصنع سوبارو هذا يمثل لولاية إنديانا «أول تجربة باعتبارها بلداً من العالم الثالث».

سألته: كيف ذاك؟

قال لارسون: «لقد شب الجيل الذى أنتمى إليه، الجيل الذى نضج فى الخمسينيات على فكرة أن أمريكا تتفوق فى كل شىء. وإننا نحن الذين نصنع العولمة. ولكن عندما كان رجال صناعة السيارات اليابانية يبحثون عن موقع لمصنع سوبارو

جاءوا هنا بالطريقة التى يذهب بها الأمريكيون إلى الهند، يسألون كل تلك الأسئلة: هل نستطيع الحصول على كل ما نطلبه؟ هل يمكن أن نثق فيكم؟ هل لديكم قوة عمل مستقرة؟ ما هو مستوى التعليم هنا؟ هل سنحصل على إعفاءات ضريبية؟ وكان قادة المجتمع هنا متلهفين على الاستثمار، ولكن بعض الناس تساءلوا: «من يكون هؤلاء اليابانيون حتى يسألوا عن مدارسنا؟»

وعندما قرر المسئولون فى شركة سوبارو إقامة مصنعهم فى لافاييت، اقترح أحدهم إطلاق اسم جديد على الطريق السريع الذى يمتد أمام المصنع مثل اسم «طريق سوبارو السريع» تكريماً لهذه الشركة التى ستأتى وتجلب معها كل فرص العمل هذه. وأضاف لارسون موضحاً «غير أن النقابة المحلية لعمال السيارات سمعت بذلك وأقامت ضجة كبيرة. قالوا إنه لا يمكن إطلاق اسم جديد على الطريق السريع. فهل تعلم ماذا يعنى اسم هذا الطريق؟» كان الطريق قد أطلق عليه بالفعل اسم طريق باتانBataan السريع ـ تكريماً لاسم شبه الجزيرة الموجودة فى الفلبين التى لقى فيها آلاف الأمريكيين حتفهم فى مسيرة للموت بعد أن صاروا أسرى للقوات اليابانية فى أبريل عام 1942.

وأضاف بروفيسور لارسون: «أبدى المسئولون فى شركة سوبارو تعاطفاً شديداً وقالوا إنه يجب علينا، أن لا نطلق بأى حال من الأحوال، على طريق باتان السريع الاسم الجديد 'طريق سوبارو السريع'. ومنذ ذلك الوقت اعتاد الناس تماماً على وجود اليابانيين ويُقابلونهم هنا بالترحاب. ويتناوب علينا هنا المديرون اليابانيون جيئة وذهاباً مع عائلاتهم. ويذهب أطفالهم إلى المدارس المحلية ـ فيما عدا أيام السبت التى يذهب فيها الأطفال اليابانيون إلى مدارسهم الخاصة حتى يحافظوا على لغتهم كما أنهم لا يعتقدون أن الرياضيات التى ندرسها لهم قوية بدرجة كافية».